قيام الممالك وانحطاطها

تابع ما قبلهُ

لما استهلَّ القرن الثامن للميلاد قامت دولة العرب فانتشر علمها في اسيا الصغرى وشمالي افريقية واسبانيا — في اكثر البلدان خصبًا واقدمها عمرانًا - فالبحر العرب بخبرات تلك البلاد الواسعة فعمَّت تجارتهم المسكونة واتصل تجارهم من الصين شرقًا الى بلاد اسوج غربًا وصارت بغداد مركز تجارة العالم ومحط غناهُ واضحت مدن العرب مقرًّا للعمران فشادوا المدارس الجامعة وجمعوا المكاتب الحافلة ونشأ من اهل الاسلام احذق الاطباء واعظم القضاة واشهر المهندسين ولا تزال آثار ثروتهم في المشرق والمغرب ومعالم عمرانهم في اللغات الاوربيَّة ومنها كلمة امير البحر (admiral) ومخزن (magazine) وطرحة (tare) وتعريف (tarifa) ونظير (nadir) وما اشبه

الاَّ ان الممالك العربية لم تكن متكافلة - فوقع فيها الشقاق وتغلَّب الاوربيون عليها وزال معها ما امتازت بهِ من العلم واتساع نطاق التجارة

ولم تكد قوة العرب تضعف حتى قويت سواحل ايطاليا باتجاه التجارة من المشرق اليها فقامت فيها البندقية وجنوى وبيزا وامالفي ولكل منها حكومة جمهورية وكان السبق فيها لامالفي فتسلَّطت على البحر وفاقت غيرها ثروة وعلمًا وجاهًا وصارت شرائعها شرائع البحر الى اليوم وهي التي ادخلت استعمال الحك المغنطيسي في سلك البحر وصار كل اهل المشرق يتعاملون بنقودها فحدثها بيزا ونشبت الحرب بين المدينتين فكان الفوز لاهالي بيزا فنهبوا امالفي سنة ١١٣٥ وانحط شأنها من ذلك الحين واصبحت قرية حقيرة وقلَّ من يعلم الان انها كانت سيدة البحار

واستعزَّت بيزا بفوزها وتسلَّطت على كورسكا وسردينيا وجزائر بالاريا فبنى اهلها المباني الفخيمة فيها ودامت ترفل في عزها مئتي سنة ثم دالت دولتها وفازت جنوى عليها وتملكت واصبحت ستة عشر الفًا من اهاليها في واحة ملوريا فاصبحت سيدة البحار واصبحت بيزا قرية بعد ان كانت اكبر مدن اوربا في عهدها وكان سكانها ١٥٠٠٠٠ واقتسمت جنوى والبندقية سيادة البحر فاشتدَّت المناظرة بينهما مدة ثلاثة قرون واخيرًا تمَّ الفوز للبندقية فبلغت اوج مجدها في القرن الخامس عشر وصارت مركز تجارة الدنيا ومحط الغنى والعلم وكانت قوتها في سفنها فقد كان فيها من المجارة خمسون الفًا

وبقي العمران محصوراً في سواحل بحر الروم مدة اثني عشر قرناً لكن العرب والطليان وصلوه الى شمالي اوربا فنشأت له معاهد جديدة على سواحل البحر الشمالي وبحر بلطيك اقيمت فيها معامل الصناعة واسواق التجارة

ثم دار فسكو دي غاما حول جنوبي افريقية ووصل الى الهند فرأى اهالي اوربا ان جلب البضائع الهندية بطريق رأس الرجاء الصالح اقل نفقة من جلبها براً الى ان تصل الى سواحل بحر الروم. فتغيرت طريق التجارة وكان ذلك ضربة قاضية على البندقية حتى طلب البنادقة ان يشتروا كل البضائع الشرقية التي كانت تصل الى البرتوغال بحراً لكي يبقى لهم يد في تجارة المشرق. فرُفض طلبهم واضطروا يعيشوا بقية زمانهم على الاموال التي ذخروها فانحط شأن البندقية رويداً رويداً من ذلك الحين

وكانت مدينة بروج في البلجيك قد اقتسمت الثروة مع البندقية لما كانت تجارة المشرق في يد البنادقة لانها واقعة في قلب اوربا فلما انتقلت التجارة الى اهالي البرتغال بقيت بروج في مقامها لانها واسطة عقد المدائن الاوربية وبلغ عدد سكانها في القرن الخامس عشر مئتي الف نفس اي انها كانت حينئذٍ اكبر من لندن وباريس فاعتمد اهلها واهل البلاد المجاورة لها على الصناعة والتجارة وترفهوا واهملوا فنون الحرب فحاربهم دوقات برغندي وقهروهم فهاجر كثيرون منهم الى هولندا والمانيا وفرنسا وانكلترا وانشأوا المصانع فيها وضعف شأن بروج وهاجر تجارها الكبار الى انفرس فصارت عاصمة التجارة في شمالي اوربا لكن امرها لم يطل لانها حُصرت ونهبت فهرب تجارها الى امستردام. ونشبت الحرب الدينية بين هولندا واسبانيا ودامت ثمانين سنة فاستفادت منها هولندا وساءت حال اسبانيا وكان لاسبانيا والبرتغال في بداءة الحرب اعظم المستعمرات لان البابا اسكندر السادس قسم العالم الجديد (اميركا) بينهما سنة ١٤٩٣ ثم لما تغلبت اسبانيا على البرتغال سنة ١٥٨٠ صارت اميركا كلها من نصيب اسبانيا وصارت اسبانيا اغنى ممالك الدنيا واقواها براً وبحراً فلم تنته حرب الثمانين سنة حتى انتقل غناها واغنى مستعمراتها الى يد الهولنديين لانهم تغلبوا عليها بحراً فصارت لهم السيادة على البحار وقبضوا على تجارتها. وقد حقق السر ولتر راني وغيره من الثقات ان سفن الهولنديين التجارية كانت في بداءة القرن السابع عشر اكثر من سفن سائر ممالك الارض جمعاء. وكان اسم نيويورك حينئذٍ نيوامستردام وكانت مستعمرة هولندية واستولى الهولنديون على برازيل انتزعوها من يد البرتغال واستولوا ايضاً على جزائر الطيوب ورأس الرجاء الصالح وانتشرت نجلهم التجارية في كل الاقطار وصارت سلطنتهم مثل سلطنة الانكليزية الآن وكانوا

اقوى امة كلها واغناها ... وكان في الامكان ان تصير اميركا كلها هولندية بدلاً من ان تصير انجلوسكسونية . وكانت السفن الهولندية تحمل بضائع انكلترا وفرنسا فصارت استردام مركز الحركة المالية للدنيا كلها وجعلت هولندا تجبي الجزية من كل المسكونة

ان عظمة انكلترا التجارية والبحرية حديثة العهد فانهُ لما كانت القوة في يد اهالي القطر كانت انكلترا في الدرجة الثالثة فانها كانت بلاداً زراعية يجلب المتملكون صوفهم منها وكانت تجارتها في يد تجار من الالمان اسمهم استرلن ومنهُ سمي الذهب الانكليزي بالذهب الاسترليني فكانوا في البلاد الانكليزية كالتجار الانكليز الآن في بلاد الصين فنزعت الملكة اليصابات الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها لكي تنهض همة الانكليز للتجارة . ولم يكن عند الانكليز حينئذٍ سفن تجارية يُعتدُّ بها ولا كانوا يهتمون بصيد السمك بل كانت حرفتهم البحرية القرصنة

ولما بنت هولندا اوج مجدها استعزَّت داخل سدودها البحرية واهملت جنودها والصنائع التي تقوي رجالها وتزيد خيرات ارضها فلم تعد حاصلاتها تكفي ثمن سكانها واهملت مصايدها التي كانت تعتمد عليها لتربية البحَّارة من رجالها فانتصر تجارها على مناصبهم الخاصة واعتقد الهولنديون انهُ ما من دولة تجسر ان تحاربهم بعد ان حاربوا اسبانيا وقهروها فاهملوا بحريتهم ايضاً حاسبين ان ثروتهم الطائلة تمكنهم من تقويتها عند الحاجة الى ذلك باسرع ما يمكن من الوقت فعلم كرومول مواقع ضعفهم وهاجمهم سنة ١٦٥٢ فتغلَّب قوادهُ على قوَّادهم ثم سنَّ القوانين البحرية التي غلَّت ايدي تجار هولندا ومهَّدت السبيل لعظمة انكلترا البحرية ثم توالت النكبات على هولندا من انكلترا وفرنسا فحطت سيادتها البحرية والتجارية

وسنة ١٦٦١ استلم كولبر ادارة فرنسا وكانت فرنسا زراعية فقيرة وهولندا تجارية صناعية غنيَّة فعزم على اغتنام جانب من صناعة هولندا وتجارتها ووضع رسوماً باهظة على بضائعها فانتقل جانب كبير من صناعتها الى فرنسا وحذت بلدان اخرى حذوهُ . واما الهولنديون فبقوا على حرية التجارة لا يأخذون المكوس على بضائع الاجانب الى ان تلاشت صناعتهم وتجارتهم . ورغبت انكلترا وفرنسا في توسيع تجارتهما واستعمارهما من اسلاب الهولنديين فاختصموا عليها ونشبت الحروب بينهما ومضى قرن كامل من عهد الملك لويس الرابع عشر الى عهد نبوليون الاول وهما تتناظران على امتلاك البحار والاستئثار بالاستعمار فلما قهر نبوليون استتبت السيادة البحرية لانكلترا . فبالسيف نالت سيادتها البحرية والصناعية والاستعمارية وبسياسة حكامها الذين حموا تجارتها وصناعتها . ثم ان حروب نبوليون خربت اوربا واوقفت دولاب صناعتها وتجارتها وازالت منها كل منافسة لانكلترا . وكان السلم ضاربًا اطنابهُ في

انكلترا فاستأثرت بالصناعة والتجارة والثروة واصبح انعام كلهُ مديوناً لشعب الانكليزي

ولكن قبل الكسر انكسرباه وقبل السقوط تشامخ «روح» في اواسط القرن الماضي كانت انكلترا تستخرج من الفحم الحجري وتنسج من المنسوجات القطنية وتسبك من الحديد اكثر من كل ممالك الارض وكان فيها من النقود وسكك الحديد والسفن اكثر مما في كل الممالك واعتقد الانكليز كما قال كوبدن ان الطبيعة نفسها هيأت انكلترا لتكون دار صناعة الدنيا ولتبقى كذلك ابد الدهر فاطمأنوا بهذا الاعتقاد واهملوا تحصين بلادهم سياسيًّا وماليًّا فجعلت عظمتهم تنحط من ذلك الحين صناعيًّا وتجاريًّا وماليًّا . والآن ترى الولايات المتحدة والمانيا تناظرانهم في سيادتهم التجارية والبحرية لانهما تتقدمان تقدماً سريعاً وهم واقفون في اماكنهم فاذا خبأ المستقبل لانكلترا هل نتعلم من التاريخ وقد مال بنجمنا الى الافول

ان تاريخ ثلاثة آلاف سنة يعلمنا ان المقتنيات كلها من املاك واموال لا تكون نصيب الضعيف المسالم بل نصيب القوي الذكي ولا يناله الخامل الذي يشبع آراء العلماء والادباء بل البطل الباسل الذي يتسلح بالهمة والاقدام والعقل والتدبير . وان الثروة والقوة لا تحفظان الاَّ بحد السيف . وان المال لا يقوم مقام القوة ولكن القوة تقوم مقام المال وهي افضل منهُ وان الاموال لا تحمي نفسها . وان اهمال الزراعة والاستعداد الحربي كان الضربة القاضية على كل الممالك التجارية السالفة من فينيقية الى هولندا وان المدن الكبيرة تلهم قوة البلاد

ولقد اهملت انكلترا زراعتها وبنت لنفسها بناء ماليًّا لم يرَ العالم اعظم منهُ اقامتهُ على عمود واحد نصبتهُ في بلاد غريبة ودول الارض تنشر الآن هذا العمود بمنشار من الفولاذ فلا تستطيع بريطانيا ان تحفظ عظمتها الاَّ باساطيلها ولا تستطيع اساطيلها ذلك الاَّ اذا كانت اقوى من اساطيل سائر الدول

ولا يخفى ان بريطانيا ليست الآن اغنى ممالك الارض كما كانت قبلاً وان الحق للقوة في المعاملات الدولية والبقاء للاصلح والاقوى حسب النواميس الطبيعية والشرائع السياسية

والآن وقفت بريطانيا في مفرق الطرق فاما ان تقوى على الاحتفاظ بما لها او ان تفقد وتتلاشى . وتسميتها سلطنة واحدة انما هو من باب التساهل لان اجزاءها المختلفة ليست محكمة الارتباط فهي مثل سلطنة الهولنديين ومثل سلطنة الفينيقيين

ولقد انقرضت الممالك القديمة لانها لم تجارِ عصرها فان كانت بريطانيا لا تجاري روح هذا العصر ان كانت لا تترك سياسة الاهمال والاكتفاء بالاعتزال والانصباب على جمع المال والتمسك باهداب الحال والبقاء على إعفاء يضائع الاجانب من المكوس ولا تعود الى

الاعتناء بالزراعة واستثمار خيرات الارض وتدريب شعبها على الفنون الحربية حتى يكونوا على استعداد للحرب دائماً ولا تهتم بربط اوصالها وتوحيد قوتها حتى يستطيع المجموع كلهُ ان يدافع عن نفسهِ — ان كانت لا تفعل ذلك كلهُ فقد قضي عليها حسب سنَّة العمران وسنة الطبيعة وستدرج كما درجت فينيقية وقرطاجنة واثينا وروميه والقسطنطينية والمملكة العربية واسلفي وبيزا وجنوى والبندقية والمملكة الهولندية

تغير الاقليم

(تابع ما قبلهُ)

تقلبات الاقليم الزمنية وكلف الشمس — ظهر بالمراقبة ان مغنطيسية الارض تتغير في ادوار متساوية يبلغ طول الدور منها ١١ سنة فآل هذا الاكتشاف الى البحث فيما اذا كان هناك ادوار مثلها في الحوادث الجوية . والبحث في ذلك قديم يمتدُّ الى القرن السابع عشر ولكن العلماء لم يعتنوا بهِ العناية الواجبة حتى سنة ١٨٧٠ ومع ذلك كلهِ لم تصب مباحثهم المرمى ولا وفت بالغرض المطلوب لصعوبة الموضوع وغموضهِ . ولا غرابة ان توجد علاقة بين الامرين وان لم تؤيدها الحوادث كل التأييد فقد دلَّت الارصاد على تغيرات في الحرارة والمطر كل احدى عشرة سنة في بعض الاماكن ولكن هذه التغيرات طفيفة وغير قياسية ولا تتناول مساحات واسعة حتى يمكن الانباء بتغير الاقليم في ازمان معلومة . ففي بعض الاحوال ترى العلماء مختلفين في علاقة الاقليم بازمان ظهور الكلف وفي البعض الآخر ترى نتائج الابحاث متناقضة

فقد أبان كوبن مثلاً ان الحرارة تكون على معظمها في المنطقة الحارة خصوصاً حينما تكون كلف الشمس على اقلها ولكن اختلاف متوسط الحرارة السنوية عند ما تكون الكلف على اقلها وعند ما تكون على اكثرها انما هو درجة وثلث درجة في المنطقة الحارة واقل من درجة في غيرها . ورأى نورد من البحث عن السنين الواقعة بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠ ان الحرارة تكون على اقلها حينما تكون الكلف على اكثرها . ويظهر ان هذه النتيجة مناقضة لما اثبتهُ كوبن ولنقول بان الشمس تكون اشدَّ حرارة حين تكون الكلف على اكثرها وقد فسَّروا هذا القول بناء على ان وقوع المطر وتكوُّن السحب — وكلاهما يكون على اكثرهِ حين تكون الكلف على اكثرها — يحتفظان الحرارة ولا سيما في المنطقة الحارة . فظاهر من ذلك ان